

الطريد الخالد – جمال الدين الأفغانى



قصة للأطفال

بقلم: د. رءوف عباس حامد

إلى ولدى حاتم. . .
وإلى أبناء جيله. . .
أهدى قصة هذا الطريد الخالد

جميع الحقوق محفوظة لورثة المؤلف. ولا يحق لأى طرف أن يعيد نشر هذا العمل أو أى جزء منه بأى وسائل سمعية أو بصرية أو إلكترونية أو مطبوعة أو أى وسيلة نشر معروفة حالياً أو تستحدث مستقبلاً باللغة العربية أو مترجماً إلى اللغات الأجنبية إلا بعد الحصول على موافقة كتابية. للإتصال: info@RaoufAbbas.org

1 شهود الرحيل

الزمان: صباح التاسع من مارس (آذار) عام 1897.

والمكان: مقبرة المشايخ، بضواحي الإستانة، عاصمة الدولة العثمانية، حيث المقر الأخير لعلماء الإسلام.

وعلى مشارف المقبرة وقف خالد الشامي وعبد الكريم العراقي والخضر التونسي. ثلاثة من الفتية العرب جاءوا لتوهم إلى الإستانة لطلب العلم، وراحوا يتعرفون على معالم حاضرة دولة الخلافة الإسلامية، ثم قصدوا مقبرة المشايخ للزيارة في ذلك الصباح، حيث كانت نسيمات الربيع تحمل معها شذى الورود، فتجعل المكان مزيجاً من نبض الحياة وعبرة الموت، وكان هؤلاء الشباب جاءوا ليعاهدوا أولئك العلماء الذين أفنوا حياتهم في خدمة الإسلام، على متابعة السير على نفس الطريق واستكمال الرسالة.

وبينما كانوا يستطلعون المكان، اذا بجنائز متواضعة تقترب منهم، وعجب الشباب لقلة عدد المشيعين، ولوجود بعض جنود الضبطية (الشرطة) حول الجنائز، وكأنهم يريدون الإطمئنان إلى أن الميت قد نزل قبره بالفعل!!

التفت الخضر التونسي إلى زميله وقال: "يا إلهي.. أهكذا يشيع العلماء إلى دار البقاء؟ أليس هذا الميت الكريم أحدهم إذن، أين تلاميذه ومريديه وأصدقائه؟ لماذا لا يشترك في جنازته إلا حفنة من الناس نصفهم من العسكر؟!"

شاركه صاحبه التعجب مما يرون. وما أن وورى الميت التراب، تفرق الجمع إلا واحد من المشيعين، كان رجلاً أسمر البشرة، يرتدى الملابس الأوروبية، يبلغ الخمسين من عمره، إشتعل رأسه شيباً، بدت عليه شدة الحزن، طال وقوفه أمام القبر، ثم تاهب لمغادرة المكان، عندما اقترب منه الشبان الثلاثة وبادروه بالتحية، فحياهم بأحسن منها، وعلموا منه أنه يدعى "على قويدان المصرى" وأنه يعيش بالإستانة، بعدما وقعت مصر فريسة للإحتلال البريطاني، وأنه صديق للمتوفى، فسألوه:

"ومن الشيخ الذى شيعتموه اليوم؟ ولماذا لم يخرج لتشييعه إلا عدد محدود من الناس؟ وما صلة العسكر بالأمر؟ هل هو غريب؟ عربى أم تركى..؟"

تنهد على المصرى، وهو ينظر إلى القبر وقد فاضت عيناه بالدموع، وقال:

"يا أبنائى، هنا يرقد شيخنا وأستاذنا فى الوطنية السيد جمال الدين الحسينى، حكيم الشرق، الذى قضى عمره كله مناضلاً من أجل الحرية، وعزة الأمة الإسلامية. وقد عرفناه يا أبنائى بالأفغانى، نسبة إلى بلاد أفغانستان، حيث بدأ أول مراحل نضاله ضد التدخل الأجنبى، وامتلاً قلبه بغضاً للإنجليز. ولكن البعض يظنونه فارسياً من إيران، فله فى تلك البلاد قصة نضال ضد الطغيان، وأنصار وتلاميذ".

وبينما كان الفتية يستمعون إلى الرجل، تذكر خالد الشامى شيئاً، فقال:

"أجل أنه لرجل عظيم، لقد سمعت من أبى أن أحد علماء حلب من أصدقاء صاحبك الأفغانى ذكر له أن السيد جمال الدين قال يوماً لرئيس ديوان السلطان عبد الحميد الثانى عندما وجه إليه اللوم لتحريكه حبات مسبحة فى حضرة السلطان: أن مولانا السلطان يلعب بمستقبل ملايين المسلمين، فهل تلوم جمال الدين إذا لعب بحبات المسبحة..؟!"

وبدا الضيق على عبد الكريم العراقي لمقاطعة خالد لحديث صديق جمال الدين، فقال: "يا لها من شجاعة نادرة، ولكن ألا تصبر يا أخى حتى يشفى العم على غليلنا، ويزيدنا علماً بسيرة الفقيد الجليل؟"

أنصت الجميع وهم يتطلعون إلى على المصرى وهو يستطرد قائلاً:

"عاش السيد جمال الدين حياته عدواً لدوداً للطغيان، ورغم أن السلطان نجح فى إبقائه بالإستانة وحرص على معاملته باللين، إلا أنه كان يخشاه، لتأثيره على الناس، فأحاطه بالجواسيس حياً، ودفنه محاطاً بالعكسر ميتاً، ولم يسمح إلا لعدد قليل من أصدقائه بتشيعه".

وسكت الرجل بُرْهه، بدت عليه فيها علامات التفكير، ثم استأنف الحديث فقال:

"إذا شئتم يا أبنائى أن تعرفوا المزيد من سيرته، أدلكم على شاب عربى شامى، كان يلزم الأفغانى فى أيامه الأخيرة، وكان السيد رحمه الله يحبه، وربما كان أقدر منى على ذلك، فلدنيه فسحة من الوقت للجلوس إليكم لأنه

طالب علم مثلكم، وإن كان أكبركم عمراً أما أنا فسياسي تتعقبه جواسيس السلطان، واتصالكم بي يعرضكم لمطاردة الضبطية (الشرطة)".

فسأله الشاب: ما اسم هذا الشامي المحظوظ؟ ومتى وأين نستطيع مقابلته؟

أجاب على المصري:

"إسمه عبد القادر المغربي، أما المكان الذي تلتقون به فيه فمتنزه (الكاغد خانة)، وهو متنزه عام يرتاده الناس جميعاً، وإجتماعنا به قد يبدو في أعين الرقباء مجرد مصادفة، أما الزمان فبعد صلاة عصر الغد وسوف أقدمكم لعبد القادر، ثم أترككم في رعاية الله ورعايته".

2 في الكاغد خانة

على ضفاف البسفور، المضيق الذي يربط البحر الأسود ببحر مرمرة، الذي يصل بين البحرين الأسود والأبيض المتوسط، حتى تكاد آسيا تلامس أوروبا، في موقع شهد صراعا مريرا بين الدول العظمى على مر التاريخ، لعل ابرزه الصراع بين المسلمين والروم، ثم بين العثمانيين والدولة البيزنطية، والعثمانيين والروس، امتد متنزه بديع، أشجاره باسقة، وأزهاره يانعة، يعطر شذاها المتنزه بما تحمله من أريج الربيع، وتكسبه ألوانها المتعددة رونقاً وبهاء.

وجرت عادة أهل الإستانة على ارتياد المتنزه كل يوم، وخاصة في الربيع والصيف، وعلى اختلاف مراتبهم الاجتماعية، فالأثرياء يأتون في العربات التي تجرها الخيول، والكادحون يفتدون إليه سيراً على الأقدام. وكان الفتية الثلاثة، الخضر التونسي، وخالد الشامي، وعبد الكريم العراقي، ينتمون إلى الفريق الأخير.

فيعد أن أدوا صلاة العصر بأحد المساجد القريبة، أتجهوا صوب المتنزه سيراً على الأقدام. وهناك التقوا بعلي المصري الذي كان برفقته شاب متوسط القامة، يبدو من هيئته أنه من طلاب الشريعة الإسلامية. وبعد أن تبادل الجميع التحية، انسحب على المصري إلى حيث كانت تنتظره عربة خاصة انطلقت به بعيداً، وبدأ الشباب يتجادبون أطراف الحديث.

وكان الخضر التونسي أول المتحدثين فقال:

"بالأمس شهدنا رحيل السيد جمال الدين الأفغاني، وسمعنا من العم على بعضاً من سيرته، وعلمنا منه أن الأخ عبد القادر كان سعيد الحظ بنيل شرف صحبة السيد، فزدنا بالله عليك من أخباره، فما أحوجنا إلى سماعها".

فقال عبد القادر:

"ما أسعدنى بالتعرف على ثلاثة من أخوانى العرب الذين جاءوا إلى الإستانة طلباً للعلم، فقد كان أستاذنا جمال الدين الأفغاني يردد دائماً أن الغرب إنما نهض بالعلم والعمل، بينما إنحط الشرق بالجهل والكسل، وكان يدعونا إلى الحرص على طلب العلم والتعمق فيه، دون أن نكتفى بقصور المعرفة، وعنده أن العالم الفقير غنى بعلمه، والغنى الجاهل فقير بجهله".

وما كاد الثلاثة يسمعون هذا القول حتى قاطعوا عبد القادر المغربي قائلين: "يا له من عالم عظيم، لعله كان فقيها بالشريعة، صرف حياته كلها في خدمة الدين"

فإستطرد عبد القادر قاتلاً:

"أجل يا أخوانى، ولكن السيد لم يكن مجرد عالم دين، بل كان فيلسوفاً حكيماً، وزعيماً سياسياً، كما كان يكره من يتخذون الدين صناعة لكسب الرزق، ويرى أن تمسك بعض ذوى العمائم بالأحكام الشرعية القديمة دون تجديد أضر بالإسلام والمسلمين، وأن الإيمان واليقين ليس معناهما عبادة رؤساء الدين، ولازلت أذكر ما حدث ذات يوم عندما ذهب مع السيد للصلاة بمسجد السلليمانية، فإذا بشيخ يمسك بخناق رجل (أفندى) ويهزه قاتلاً: (إن لبسك هذا القميص حرام وكفر لأنه من صنع الأفرنج)، فإذا بالسيد جمال الدين يقترب من ذلك الشيخ الجاهل ويقول: (ياشيخ، إن عمامتك وجبتك، وعمامتى وجبتى من صنع الأفرنج، فلماذا لا تخلع عمامتك، وترمى بجبتك أولاً، ثم تعمد إلى قميص الرجل فتسلحه أياه؟!)"

ضحك عبد الكريم العراقي وقال: "حسنا فعل السيد جمال الدين، فكم من أمثال هذا الشيخ الجاهل بين أبناء هذه الأمة في هذه الأيام. . . لا حول ولا قوة إلا بالله".

وقال خالد الشامي: "يبدو أن الراحل الكريم كان مجتهداً مجدداً في الدين، ولعله لاقى المتعاب من رجال الدين الذين يتمسكون بالقديم ويتعصبون له"

فأجاب عبد القادر:

"أجل، كان يرى أن الأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، لو عاشوا إلى اليوم لما توقفوا عن الاجتهاد والتجديد، ولأتوا بأحكام شرعية تناسب زمانهم، وتتقارب مع عقول جيلهم، فقد بعث الله محمداً بلسان عربي ليفهم قومه ما يريد إفهامهم، وليفهموا منه ما يقوله لهم، وكان يقول دائماً: (كل عناصر الوجود في هذا العالم الفاني خاضعة للعقل الانساني، والدين الإسلامي يكاد ينفرد بين الأديان بتوجيه اللوم الى من يعتقدون في شئ بغير دليل، ويدعو دائماً إلى تحكيم العقل)، وكان السيد يستشهد على ذلك بقوله تعالى (إنا انزلناه، قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)".

قال الخضر التونسي: "ما اوسع افق الرجل، وما أعظمه من داعية للإسلام، فإذا كان الله يطالبنا بأن نحكم العقل في فهم آياته البيّنات، فأولى بنا أن نحكم العقل في كل أمور الدنيا".

قال عبد القادر المغربي:

"كانت للسيد جمال الدين وجهة نظر خاصة بالدعوة الإسلامية. روى لي يوماً أن السلطان إستدعاه لإستشارته في أمر هام، إذ تلقى السلطان رسالة من إمبراطور اليابان يطلب فيها إرسال بعض الدعاة من المسلمين إلى اليابان. وسأل السلطان السيد الرأي، فنصحه بأن يوجه إلى الإمبراطور رسالة رفيقة لا يحدد فيها موعداً معيناً لإرسال الدعاة، حتى يتم اعداد أولئك الذين يتسلحون بالعلم ويحسنون مخاطبة العقول، عندئذ يوفدهم السلطان وهو مطمئن إلى حسن دعوتهم إلى الإسلام".

وتسائل خالد الشامي: "ولكن يا أخ عبد القادر، كيف كان السيد جمال الدين زعيماً سياسياً ومصلاًحاً دينياً في وقت واحد؟"

قال عبد القادر:

"إعلم يا أخي أن السيد جمال الدين كان يرى أن لا سبيل لنهضة الشرق إلا بإصلاح شأنه، وأنه لن يقوى على مواجهة الإستعمار إلا إذا تزود بأسباب القوة، ولحق بركب التقدم. ولا يتحقق ذلك إلا بالعلم والعمل، دون إكتفاء بما حققه الأجداد من مجد قديم. قرأ السيد يوماً بأحدى المجلات أن العرب سعوا لإكتشاف أمريكا قبل أن يكتشفها الأوروبيون بعدة قرون، فقال: (لا أريد أن أسر المسلمين بكلمة، هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان كونوا بنى آدم، أجابوه: أن أبائنا كانوا كذا وكذا. . . . وعاشوا في خيال ما فعل آبائهم، غير مفكرين بأن ما كان عليه أبائهم من الرفعة والتقدم، لا ينفى ما هم عليه اليوم من الخمول والتأخر)".

فهب عبد الكريم العراقي قائلاً: "إذن يا أخي كان الأستاذ الجليل يرى في النهضة العلمية والإقتصادية دواء يشفى الأمة الإسلامية من أمراض التأخر ودرعا يقيها من أطماع الإستعمار".

فأجاب عبد القادر المغربي:

"أجل يا أخي، لقد كان السيد جمال الدين يوصي أمته بالعمل، ويقول: (ألف قول لا يساوى في الميزان عملاً واحداً، فلا يأتي الحق من غير تعب، والحرية تؤخذ ولا تعطى، والإستقلال لا يُنال بالأقوال، وطالب الموت في سبيل الوطن إما أن يموت بطلاً شهيداً، وأما أن يعيش سيّداً عزيزاً، وما مات أحد في حب أمته إلا وأحيته)".

قال الخضر التونسي: "إذا كان السيد جمال الدين يفضل العمل على القول، فلا بد أن يكون وهب حياته كلها لتحقيق ذلك، فعاش قصة نضال خالدة".

فرد عبد القادر المغربي قائلاً:

"صدقت يا أخي، لقد كان السيد جمال الدين مناضلاً صلب العود ضد الإستبداد والطغيان والإستعمار في أفغانستان وإيران والهند ومصر وغيرها من بلاد الإسلام، وكانت له مواقف بطولية مع الإنجليز وقصر الروس والسلطان العثماني".

هنا صاحب الشبان الثلاثة معاً في لهفة وشوق: "زدنا يا أخى بالله عليك من أخبار هذا المصلح الثائر العظيم".

فقال عبد القادر المغربي:

" حسنا، ولكن حان الآن موعد صلاة المغرب، فهلموا إلى الصلاة، ثم دعونا نلتقى يوم الجمعة القادم عقب الصلاة على مقهى اليوناني المتمصر جورجي بالقرب من سوق مصر لأقدمكم لواحد من الفرس ممن عاصروا نضال الأفغاني في إيران وأفغانستان والهند إنه ميرزا لطف الله، فإلى الملتقى.

3 مع ميرزا لطف الله

ينتظر الشبان الثلاثة يوم الجمعة بشوق كبير للقاء الفارسي صديق جمال الدين، وما أن أدوا فريضة الصلاة حتى إنطلقوا إلى المقهى، فلم يجدوا عبد القادر المغربي قد وصل بعد، ورحب بهم جورجي اليوناني صاحب المقهى بلغة عربية ذات لكنه أجنبية تعلمها في مصر، وما هي إلا لحظات حتى جاء عبد القادر وبصحبه شيخ جليل يرتدى الملابس الأوروبية والطربوش التركي، وقد زادت لهيته التي يغلب عليها الشيب وقاراً.

ألقى عبد القادر المغربي التحية على الشباب وقال ضاحكاً: "اننا لم نتأخر، ولكنكم بكرتم بالحضور".

فقال الخضر التونسي: "نعم، حرصنا ألا نضيع لحظة من لحظات هذا اللقاء الذي ترقبناه أياماً، أهلاً بك وبالسيد ميرزا لطف الله".

قال ميرزا:

"مرحباً بكم لقد أطلعني عبد القادر على ما كان من شأنكم وفقيد الإسلام السيد جمال الدين الحسيني، ورغبتكم في تتبع قصة نضاله الذي كان لي شرف معاصرته، فلم أتوان عن الحضور إليكم، وخاصة أن أستاذنا الراحل علمنا أن نحب الشباب ونقربهم إلينا، فكان يقول لنا دائماً الشباب جسر من جنون لا غنى للعقلاء من المرور عليه".

عبد القادر المغربي: "لقد سألتني الإخوان عن نضال السيد جمال الدين في أفغانستان وإيران والهند، ولما كنتم أدرى مني به أرجو أن تفسحوا صدركم لهم".

فرد ميرزا قائلاً:

"على الرحب والسعة، فإن السيد قضى زهرة شبابه في تلك البلاد، وبدأنضاله بها. فقد ولد في قرية أسعد آباد بالقرب من كابل عاصمة أفغانستان عام 1839 لأسرة ذات أصل فارسي ولكن نسبها يتصل بالحسين بن علي، فهو من أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام، ولذلك عرف بالسيد، وقد تلقى جانباً كبيراً من تعليمه بأفغانستان، فدرس اللغة العربية والشريعة الإسلامية والفلسفة والمنطق والرياضيات، ثم أتم دراسته ببلاد الهند حيث تعلم العلوم الحديثة وفقاً للمنهج الأوروبي".

وسأله خالد الشامي: ألهذا لقب بالأفغانستاني، وألم بأحوال الهند؟

فأجاب ميرزا لطف الله: "أجل وقد حج إلى بيت الله الحرام وهو في الثامنة عشرة من عمره، وزار خلال رحلة الحج بعض البلاد الإسلامية واطلع على أحوالها".

الخضر التونسي: "وهل كانت إيران من بين تلك البلاد؟"

ميرزا:

"ربما، ولكن للسيد قصة أخرى مع إيران سأرويها لكم بعد قليل، ودعونا الآن نتابع حياة السيد في أفغانستان، فبعد أن عاد من الحج ودخل في سلك الوظائف الحكومية بتلك البلاد، وشارك في الأحداث السياسية التي مرت بها، حتى إرتقى إلى منصب الوزير الأول لملك تلك البلاد (محمد أعظم خان)، في وقت قامت فيه الفتن والحروب الداخلية، فأرادت إنجلترا أن تفرق بين الأمير وأهله لتضم أفغانستان إلى ممتلكاتها بالهند، واستعانت بكل وسيلة لكسب بعض ضعاف النفوس إليها عن طريق الرشوة، حتى كانت الغلبة للجانب الذي نال تأييد الإنجليز، فإنتزع الملك من (محمد اعظم خان)، وانتهت الحرب الأهلية بهزيمة الجانب الذي أيده السيد جمال الدين، فلم يجد مفراً من مغادرة البلاد".

عبد الكريم العراقي:

"هذا شأن الانجليز دائماً، فهم ينصبون شباكهم حول بلاد الشرق الواحدة تلو الأخرى، هذه لقربها من مستعمرة الهند، وتلك لأنها تقع في الطريق إليها، ولم تسلم بلاد العرب من اطماعهم، فاحتلوا مصر، ويتطلعون الآن لمد نفوذهم إلى العراق".

الخضر: "ليس هناك سوى الانجليز يطمعون في بلاد الشرق؟ هل نسيت الفرنسيين واحتلالهم للجزائر، ثم تونس، وها هم يتطلعون اليوم إلى المغرب؟".

عبد القادر المغربي: "نعم يا أخی، انهم أيضاً ينصبون شباكهم حول الشام، ويزعمون حمايتهم لطائفة من أبنائه"

خالد الشامي: "دعونا الآن نستمع إلى ما كان من اخبار السيد جمال الدين، ترى إلى أين ذهب بعد مغادرته أفغانستان يا سيد ميرزا؟"

ميرزا لطف الله:

"ذهب إلى الهند، ولكن الانجليز خشوا أن يثير الهنود عليهم، وخاصة عندما سمعوا من عملائهم أن الأفغاني يحرض الهنود على مقاومة الإنجليز بقوله: (لو كانت هذه الملايين من البشر ذباباً يطن في آذان الإنجليز، لكاد طنينهم أن يصم آذانهم ولو كنتم سلاحف وزحفت عبر البحار إلى الجزر البريطانية، لسحبتموها إلى قعر البحر، فلماذا تستسلمون لذل الإنجليز وإستعمارهم؟!)، عندئذ طلب منه الإنجليز مغادرة الهند بعد وصوله إليها ببضعة أسابيع".

خالد الشامي: "إلى أين، وقد سدت امامه السبل، فلا يستطيع العودة إلى بلاده أفغانستان؟".

ميرزا: " إلى مصر، حيث مكث أربعون يوماً دَرَس خلالها بالأزهر فجذب إليه قلوب الطلاب، ولكن الشيوخ غاروا منه وضابقوه، فأثر الرحيل إلى الأستانة".

عبد الكريم العراقي: "وعاش فيها إلى أن شهدنا جنازته".

ميرزا: "لا يا بني فسوف يعود السيد إلى مصر، وتطول إقامته بها، ولكن فيما بعد".

الخضر التونسي: "اذن. . ماذا كان من أمره في تلك الزيارة لحاضرة الدولة العثمانية؟ لابد أن تكون سيرته قد سبقته إليها، فاستقبل بما يليق به".

ميرزا لطف الله:

"نعم، رحب الأتراك بالسيد الأفغاني أحسن ترحيب، لما عرفوه من كراهيته للإنجليز، ورغبته الشديدة في النهوض بالمسلمين، فأسندت إليه وظيفة عالية، وأصبح عضواً بمجلس المعارف (وزارة التعليم). وكانت سماحة السيد وعلمه سبباً في إقبال الناس عليه، إذ وجد الناس عنده من الآراء الجديدة ما لم يجدونه عند ذوى المناصب الدينية الكبيرة في الدولة. وحقد عليه رجال الدين عندما أقترح في مجلس المعارف طرماً جديدة لنشر التعليم، فاتهموه بالكفر والإلحاد. وختشى أصدقاؤه ما قد يترتب على ذلك من نتائج، فنصحوه بمغادرة الأستانة، على أن يعود إليها فيما بعد عندما تهدأ النفوس".

الخضر التونسي:

"هكذا شأن تجار الدين في ديار الإسلام، كلما سمعوا صوتاً ينادى بالإصلاح، أحسوا بالخطر على وجودهم، لأنهم يريدون أن تظل عقول الناس معطلة وعيونهم مغلقة، ولأن سوقهم لا تروج إلا مع التخلف والجهل. لا أظن انهم يقبلون بوجود السيد جمال الدين بينهم، ترى أين ذهب طريد الجهل بعد ذلك؟"

ميرزا لطف الله: "غادر السيد الأستانة غاضباً، واتجه إلى الحجاز فأقام فتره قصيرة ثم قصد مصر. . فأمضى بها ثمانية سنوات كانت حافلةً بالنشاط الإصلاحى، وتعبئة النفوس ضد الظلم والإستبداد والتدخل الأجنبى فى شئون البلاد".

خالد الشامي: "ما أعظم هذا الرجل ! هات ما عندك بالله عليك، ما نوع ذلك النشاط الإصلاحى؟ وكيف عبأ جمال الدين النفوس ضد الإستبداد والتدخل الأجنبى؟"

ميرزا:

"انها صفحة مجد وفخار فى كفاح السيد جمال الدين الأفغاني، سوف أسأل صديقى إبراهيم المولى الأديب المصرى وأحد تلاميذ السيد، أن يرويها لكم يوم الجمعة القادم، فدعونا نلتقى عند مدخل جامع السليمانية، وهناك

سوف أقدمكم للأخ إبراهيم المويلحي، وأفضل أن أكمل الحديث بعد مقابلتكم لإبراهيم، لأن للسيد قصة أخرى مع الهند ثم إيران، بدأت فصولها بعد خروجه من مصر".

عبد الكريم العراقي: "ومن أخرجه من مصر؟ أهي مضايقات من يرتزقون من وراء أحراف الدين؟ أم ماذا؟".

ميرزا لطف الله: "عند المويلحي الخبر اليقين، فلماذا لا تصبر إلى يوم الجمعة القادم؟!".

ضحك الجميع، وشكروا ميرزا لطف الله -الفارسي صديق جمال الدين الأفغاني- على ما سمعوه منه، وإنصرف الفتية الثلاثة على أمل لقاء جديد مع سيرة جمال الدين في مصر.

4 صانع الثوار

ظل الشبان الثلاثة يتحاورون فيما بينهم طوال الأسبوع حول ما سمعوه من تلميذ جمال الدين الأفغاني عبد القادر المغربي، ومن صديقه ميرزا لطف الله الفارسي، ووقعت في أيديهم بعض كتابات السيد جمال الدين التي كان ينشرها في مجلة "العروة الوثقى" والتي حصل عليها الخضر التونسي من بعض أصدقائه، وما كاد يقرأ بعضها حتى هرع إلى صديقه خالد الشامي وعبد الكريم العراقي، ودار بينهم الحديث التالي:

الخضر: "يا صاجبي، عثرت لكما على كنزٍ ثمين!!".

خالد: "لعلك عثرت على بعض العملات الذهبية الرومية، ففي الإستانة هذه الأيام بعثات أمريكية تنقب عن الآثار البيزنطية، في هذه المدينة التي كانت عاصمة الروم يوم كانت تسمى، بالقسطنطينية، قبل أن تسقط في يد محمد الفاتح السلطان العثماني عام 1453 ميلادية".

الخضر: "بل ما عثرت عليه أثمن بكثير من كنوز الأرض جميعاً"

عبد الكريم: "يا أخي لقد شوقتنا . قل بالله عليك، بماذا جئتنا؟"

الخضر: "مجلة العروة الوثقى التي كان يصدرها السيد جمال الدين الأفغاني في باريس حاضرة فرنسا، منذ ثلاثة عشر عاماً".

عبد الكريم: "ماذا تقول؟ هل عاش السيد جمال الدين في باريس منذ ثلاثة عشر عاماً؟! ما أعجب قصة هذا الرجل!! ثرى ما الذي ذهب به إلى هناك، ولماذا لم يصدر تلك المجلة في الأستانة أو القاهرة؟!"

الخضر: "تلك والله أسئلة دارت في بالي وأنا أتصفح المجلة، لا بد أن نجد لها جواباً عند أصدقائه في لقاء الجمعة القادم".

وحل يوم الجمعة، فهرع الشبان الثلاثة إلى مسجد السلিমانيّة، حيث ضريح السلطان العظيم سليمان المشرع (القانوني) أحد بناء الدولة العثمانية، وكانوا-كعادتهم- مبكرين، فلم يكن بالمسجد إلا عدد قليل من الزوار والمصلين، واتخذوا مجلسهم بالقرب من مدخل المسجد ليشاهدوا أصدقاء جمال الدين الأفغاني عند قدومهم.

وقبيل حلول وقت الصلاة، أقبل ميرزا لطف الله وعبد القادر المغربي، وبصحبتهم رفيق ثالث في حوالي الخمسين من عمره، لا هو بالطويل ولا بالقصير، يرتدى الملابس الأوروبية، ويضع على عينيه نظارة طبية سمكية، هو: إبراهيم المويلحي، الأديب المصري صديق جمال الدين الأفغاني وتلميذه.

تبادل الجميع التحية، وإصطفوا للصلاة، وتذكر الفتية الثلاثة ما رواه لهم عبد القادر المغربي من أن السيد جمال الدين الأفغاني كان يفضل الصلاة في هذا المسجد فأحسوا بروح جمال الدين تحوم من حولهم، وما أن أدوا الفريضة حتى غادروا المسجد بصحبة أصدقاء جمال الدين. ووسط صيحات الباعة الذين كانوا يعرضون بضائعهم على المصلين، بدأ عبد القادر المغربي الحديث فقال:

"لعله من الأفضل أن نتخذ مجلسنا بمقهى الخواجه جورجي في سوق مصر، لأنها كانت من الأماكن المفضلة، عند أستاذنا الراحل".

وافق الجميع على اقتراح عبد القادروما أن بلغوا المكان حتى إستقبلهم صاحب المقهى بالترحاب، وأفرد لهم مكانا لانقا. وما أن اتخذوا مجلسهم حتى إستهل ميرزا الحديث بتقديم إبراهيم المويلحي إلى الفتية الثلاثة قائلا:

" أقدم لكم يا أبنائي صديقي المويلحي، وهو الأديب الصحفي الشهير، وتلميذ جمال الدين، وقد دعوته اليوم ليجدثكم عما كام من أمر السيد في مصر خلال الأعوام الثمانية التي قضاها هناك".

فرد المويلحي قائلا:

شكرا لك يا أخ ميرزا، لقد كان أستاذنا الراحل يعقد الأمل على الجبل الجديد للنهوض بهذه الأمة من عثرتها ويسعدني أن أرى ثلاثة من الشباب العربي يهتمون بسيرة أستاذنا الأفغاني ، لعلمكم تصبسون رسلا لمبادئه في بلادكم".

فقال الفتية الثلاثة: أهلا بك ومرحبا، جزاك الله عنا خير الجزاء".

إبراهيم المويلحي:

" جاء السيد إلى بلادنا، وهي نهب للأجانب الذين إستغلوا ميل الحكام للإستدانة، فقدموا لهم القروض وحصلوا في مقابلها على إمتيازات عديدة هيأت لهم سبيل إستنزاف خيرات البلاد. وكان الخديوي إسماعيل يتربح على كرسى الحكم ويدير أمور البلاد بمفرده، وشكل مجلساً نيابياً دعاه (مجلس شورى النواب)، كان يدعوه للإجتماع أحيانا ويعطله أحيانا أخرى، وأثقلت حكومته من أعباء الضرائب على الفلاحين، وإستعملت كل وسائل العنف لجبايتها حتى أوشكت القرى العامرة على الخراب".

عبد الكريم: "ما أشبه الأحوال في بلادى بتلك التي يذكرها العم المويلحي، كأننا جميعاً نهياً لمصير واحده فالعراق لم يسلم من التدخل الأجنبي".

الخصر:

"بل أن حالة تونس قبل الإحتلال الفرنسي تكاد تكون مطابقة لحالة مصر على نحو ما ذكر العم إبراهيم، فالحاكم المستبد (الباي) لا يقبل إشراك الشعب في الحكم، وكان يستدين من الدول الأوروبية، فإستغل الأجانب الديون في إمتصاص خيرات البلاد ثم إحتلالها".

خالد:

"وبلاد الشام... هل سلمت من الأطماع الأوروبية؟! أنسيتم محاولات فرنسا تمهيد الأرض للإحتلال كما فعلت في الجزائر وتونس؟ أنسيتم البنوك الألمانية التي تمارس نشاطها في فلسطين، فتقدم الأموال لليهود لتعينهم على شراء الأراضي العربية؟".

ميرزا:

"يا أبنائي... كلنا في الهم سواء، فأيران وأفغانستان لم تسلما من ذلك، اننا نعيش عصر الزحف الأوروبى على الشرق، فبعد أن تطورت الصناعة في أوروبا وإستخدمت قوة البخار في إدارة الآلات، طمعت بلاد أوروبا في بلاد الشرق الغنية بالمواد الخام، والتي تسكنها الملايين من البشر التي تستهلك البضائع الأوروبية، لهذا حرصت على إخضاع تلك الشعوب لسلطانها بشتى السبل".

إبراهيم المويلحي: "صدقت يا أخی... اننا في الهم سواء، ولهذا أوقف أستاذنا جمال الدين حياته كلها على إنقاذ الشرق وتنبية أهله لخطر الزحف الأوروبى، وما فعله بمصر خير دليل على ذلك".

الخصر: "وما الذى صنعه السيد جمال الدين الأفغاني لإيقاظ المصريين وتهيتهم لمواجهة التدخل الأجنبي؟ ليته جاء إلى تونس، ربما نجت بلادنا من الإحتلال".

المويلحي:

"كان السيد يجمع حوله العديد من الشباب من أمثال الشيخ محمد عبده تلميذه الأول ورفيق نضاله، وعبد الله النديم الأديب اللامع الذى أصبح خطيب الثورة العربية، والشاعر محمود سامى البارودى الذى أصبح رئيس وزراء الثورة العربية، وأخى عبد السلام المويلحي كبير تجار القاهرة وعضو مجلس شورى النواب. وإجتمع حول السيد جمال الدين ألمع رجال الصحافة في ذلك العهد مثل: الشيخ عبد الكريم سليمان والشيخ حسن الطويل، وسليم النفاش، ونيقولا توما، وحنفى ناصف وأديب إسحق، والشاعر الزرقانى، ويوسف البستانى، وإبراهيم الهلباوى، والشيخ على يوسف الذى يصدر الآن جريدة المؤيد واليهودى المصرى يعقوب صنوع رائد

المسرح والصحافة الهزلية في مصر، والطالب الأزهرى سعد زغلول الذى يعد الآن من أبرز الساسة في البلاد".

عبد الكريم العراقي: "لقد ذكر لنا الأخ عبد القادر المغربى أن السيد كان زعيماً إسلامياً مجدداً، يسعى للنهوض بالامة الإسلامية، فكيف يتمشى هذا مع تقريبه لبعض أولئك المسيحيين واليهود؟".

ميرزا لطف الله:

"ليس هناك خلاف بين ما سمعتموه من عبد القادر، وما ذكره الأخ المويلحى، فالسيد جمال الدين كان يرى في الطائفية إضعاف للأمة، لا يستفيد من إلا الاستعمار، ويرى أن أبناء الوطن الواحد الذين ينعمون بخيراته يجب أن يعملوا من أجله، لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم، وكان يقول دائماً: (تذكروا أن محمداً بُعث مصداً لما بين يديه من التوراة والإنجيل). ولهذا كان السيد يقرب إليه النوايا من أبناء الوطن دون تفرقة بينهم على أساس العنصر أو الدين".

عبد القادر المغربى: "ولا غرابة في ذلك، فالإسلام دين السماحة والمودة والرحمة".

المويلحى:

"رأى السيد جمال الدين أن يقسم كفاحه ضد الاستبداد والتدخل الأجنبى على مراحل، فبدأ أولاً بإعداد القادة والذين يحسنون الكتابة والخطابة، فعلم تلاميذه فنون الكتابة والكلام، وشرح لهم كتب العلم والفلسفة بلغة أهل العصر وطريقتهم في التفكير. وأتى إليه التلاميذ من كل مكان بمصر وبلاد الشام، فشجعهم على إصدار الصحف وعاونهم على ذلك مادياً، فأصدر أديب إسحق – تلميذه البيروتى- جريدتى (مصر) و(التجارة)، كما أصدر يعقوب صنوع مجلة هزلية باللهجة العامية المصرية هي (أبو نضارة) وعاونه في تحريرها الشيخ محمد عبده. كذلك كان السيد صاحب الفضل في ظهور جريدة (الوطن) التي كان يحررها ميخائيل عبد السيد، وجريدة (مصر الفتاة) التي اشترك في تحريرها أديب إسحق وعبد الله النديم، فألهبت هذه الجريدة المشاعر بما كانت تكتبه عن الحرية. وأعان السيد تلميذه سليم العنجورى على إصدار جريدة (مرآة الشرق) التي نشر فيها جمال الدين مقالاته الشهيرة بعنوان (روح البيان في تاريخ الإنجليز مع الأفغان)، كما كلف السيد تلاميذه إبراهيم اللقانى ومحمد عبده وعلى يوسف بالكتابة فيها، وأصبحت (مرآة الشرق) لسان حال الحزب الوطنى الذى أسسه جمال الدين الأفغاني في مصر".

الخضر التونسى: "هل أسس السيد حزباً سياسياً في مصر؟".

المويلحى:

"تلك كانت الخطوة الثانية في كفاح السيد جمال الدين ضد الاستبداد والتدخل الأجنبى، فبعد أن خلق في مصر نهضة صحفية، تناولت خلالها صحف تلاميذه أحوال البلاد بالنقد، فأيقظت الأذهان، وفتحت العيون على ما للشعب من حقوق وما عليه من واجبات، أخذ السيد يقوم بزيارات متعددة لبيوت أصدقائه وكل من يدعونه، ويسافر بين القاهرة والأسكندرية وبورسعيد والسويس، وأخذ يعمل على التعرف على عامة الناس، فكان يجتمع بعمال الطباعة، وطلاب الأزهر، وبوفود من مختلف الطوائف. وكان يكلم كل من يلقاهم من الناس وفي المناسبات التي كانت تجتمع بمن يفهم، ومن لا يفهم. حتى في حفلات المدارس التي كان يدعى للخطابة بها، كان يستغل فرصتها ويتحدث في أخطر الموضوعات".

خالد الشامى: "أذن كان السيد جمال الدين الأفغاني أستاذاً للوطنية في مصر، وواضعاً لبذور الثورة".

المويلحى:

"نعم، حدث يوماً أن سافر إلى الإسكندرية، وتقدم للخطابة بميدان محمد على المعروف بساحة المنشية، فقال يخاطب الفلاحين الذين كانوا ممثلين في الحقل: أنت أيها الفلاح المسكين، تشق الأرض بفأسك لتستنتب ما تسد به الرمق، وتقوم بأود العيال، فلماذا لا تشق قلب ظالميك. لماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك؟"

عبد الكريم العراقي: "يا له من كلام خطير... والله لو كنت فلاحاً مصرية، وسمعت مثل هذا القول، لما ترددت في سفك دماء الطغاة".

المويلحى:

"وفي نفس الوقت، وزع السيد تلاميذه ليملاؤوا الدنيا خطاباً، فكانت القاهرة من نصيب الشيخ محمد عبده، والإسكندرية من نصيب عبد الله النديم، وشجع تلاميذه النجباء على الإلتحاق بعضوية الجمعيات السرية، وخاصة جمعية (مصر الفتاة) التي ضمت صفوة المثقفين من أبناء البلاد، على حين حث تلميذه عبد الله النديم

على تكوين جمعية ظاهرها الخدمة الاجتماعية وباطنها تجميع الناس حول مبادئ الإصلاح هي (الجمعية الخيرية الإسلامية) بالإسكندرية، وكون الشيخ محمد عبده جمعية مماثلة بالقاهرة تحت اسم (جمعية المقاصد الخيرية)".

الخضر التونسي: "هل هذه الجمعيات السرية والعننية هي التي تسمى بالحزب الوطني؟ أم ان السيد جمال الدين كون حزباً آخر بهذا الاسم؟"

إبراهيم المويلحي:

"لا هذا ولا ذاك، فالحزب الوطني لم يكن حزباً منظماً بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن عندما نذكر أى حزب سياسى، ولكنه كان تجمعا للعناصر الوطنية الملتفة حول مبادئ السيد جمال الدين، وكان لتلك العناصر تصور لها لحل مشكلات مصر المالية والسياسية وتخليص مصر من السيطرة الأجنبية. وكان من بين تلك العناصر: أعيان الريف والتجار من أعضاء مجلس شورى النواب، وضباط الجيش من المصريين الذين إستاءوا من تمييز الضباط الجراكسة عليهم، وتأخر دفع رواتبهم، وكذلك بعض البشوات الأتراك الذين يخشون على سيادة الدولة العثمانية على مصر من التدخل الأجنبي، وحتى بعض أعضاء الأسرة الحاكمة، ومن بينهم الأمير توفيق باشا ولى العهد".

الخضر: "إلى هذا الحد بلغت قدرة السيد جمال الدين على تعبئة الناس من أجل إنقاذ البلاد؟!"

المويلحي:

"بل وأكثر من ذلك، كان السيد يصنع الثوار صنعا، ويكفى أن تعلموا أن قادة مظاهرة الضباط التي كانت نذيراً للأجانب وبشيراً بالثورة المصرية التي عرفت بالثورة العربية، كانوا من الذين يرتبطون بحزب السيد جمال الدين الأفغاني ارتباطاً وثيقاً".

خالد: "لا أظن أن الحكومة إرتاحت لهذا النشاط، وكذلك الأجانب، إن معنى هذا أن السيد الأفغاني قد أحال مصر إلى بركان يوشك أن ينفجر بالثورة".

المويلحي: "أجل، ما كان بإستطاعة هذا المعلم الخالد أن يبقى على رأس تلاميذه الوطنيين، فما كاد توفيق يخلف أباه على كرسي الخديوية حتى نفى السيد جمال الدين من مصر".

عبد الكريم: "ألم تقل لنا منذ قليل أن توفيقاً كان من تلاميذ السيد، وانه كان من أعضاء حزبه؟ فلماذا إنقلب عليه؟"

المويلحي:

"كان توفيق يتقرب إلى السيد جمال الدين عندما كان يدعو إلى خلع إسماعيل، ولذلك كان يجد في السيد وجماعته ما يحقق أمله في الوصول إلى الحكم. ولكن بعد أن خلع الخديوي إسماعيل وأصبح توفيق سيد البلاد، إتخذ جانب الأوروبيين، وأدرك أن وجود السيد جمال الدين بمصر خطر على حكمه الإستبدادي وعلى مصالح سادته الأجانب، لأن السيد كان يطالب بالإصلاح ورفع الظلم عن الناس، وإقامة حكم دستوري يتيح للشعب فرصة المشاركة في تقرير الأمور ويضع نهاية للإستبداد، كما كان يطالب برفع أيدي الأجانب عن التدخل في شئون مصر".

الخضر التونسي: "وكيف كان خروج السيد من مصر؟ لا أظن أن نفيه كان أمراً سهلاً بعد كل تلك الجهود التي بذلها لتجميع صفوف الوطنيين، إنها الثورة ما في ذلك شك".

إبراهيم المويلحي:

"كان ذلك في ليلة الأحد 24 من أغسطس (آب) عام 1879، وكان السيد عائداً من ندوته التقليدية التي تعود أن يعقدها بأحد المقاهي بميدان العتبة بالقاهرة، وبصحبه تابعه الفارسي أبو تراب، هجم عليهما بعض رجال الشرطة، وإقتادوهما إلى المخفر، ومن هناك سيق السيد في عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديد، وأركبوه القطار المتجه إلى السويس، دون أن يسمحوا له بأخذ كتبه وأوراقه وملابسه. وما أن وصل إلى السويس حتى كانت هناك سفينة متجهة إلى الهند أرغم على ركوبها. وأذكر أن أحد موظفي الجمارك سأله عن أمتعته فقال: (إنها تملأ صندوقين: أحدهما صندوق ملابس) وأشار إلى جسده، (. . .) والآخر صندوق الكتب) وأشار إلى رأسه".

عبد الكريم العراقي: "وماذا فعل المصريون عندما علموا بنفي الرجل الذي خدم بلادهم أكثر من أبنائها؟"

المويلحي: "أخفت الحكومة نبأ النفي حتى غادرت السفينة السويس وأصبحت في عرض البحر، ثم أصدرت بيانا اتهمت فيه السيد بإفساد الشباب وتكوين جمعية منهم تعمل على فساد الدين والدنيا، وتوعدت من يروج أفكارها بسوء العقاب".

عبد الكريم: ". وخشى الناس سطوة الحكومة فلزموا الصمت وكان شينا لم يكن، أليس كذلك؟!"

المويلحي:

"لا يا بني، إن الشعوب عندما تستفيظ من عفوتها وتعترف حقوقها، لا تتردد لحظة في النضال من أجل حريتها، أنسيت أن أستاذنا جمال الدين قال: (الحرية تؤخذ ولا تعطى). . . لقد انفجر البركان الخامد بعد ثلاث سنوات من رحيل السيد جمال الدين أو أقل قليلا، وزلزلت الأرض زلزالها، فكانت الثورة المصرية المعروفة بالعرابية. كانت ثورة شعب بأكمله ضد الإستبداد والتدخل الأجنبي، ولكنها هزمت نتيجة الخيانة والغدر، ووقعت مصر ضحية الإحتلال البريطاني".

الخضر: "وماذا كان من أمر السيد بعد نفيه من مصر؟"

ميرزا لطف الله:

"إن من كان مثله لا يعرف سبيلاً إلى مسالمة الفساد، والطغيان والإستعمار، لقد واصل نضاله بالهند وإيران، وتلك قصة بطول الحديث عنها أعدكم بتفصيلها في لقائنا القادم، وليكن يوم الجمعة عقب الصلاة بمنزله الكاغد خانة، فقد كان المكان المفضل للنزهة عند صديقنا الراحل".

الخضر: "وهل لك أن تحدثنا أيضاً عن الظروف التي دعت السيد جمال الدين إلى الحياة في أوروبا، وما كان من أمره هناك".

عبد القادر المغربي:

"أيها الأخوة. . . إن السيد ميرزا كان كريماً معنا فاعطانا من وقته الكثير، وأرجو ألا ننقل عليه، وإن كنت أعرف أنه لا يمل الحديث عن أستاذنا الراحل. وأعدكم بأن أقص عليكم ما كان من أخبار السيد جمال الدين في أوروبا كما سمعتها منه رحمه الله".

عندئذ صاح الفتية الثلاثة فرحين:

"شكراً لك يا عبد القادر، يالك من أخ كريم، . . ولكن متى ستروى لنا هذا الجانب من سيرة السيد جمال الدين؟".

فأجاب عبد القادر: "فلنحدد لذلك موعداً المرة القادمة؟".

5 الأسد والفريسة

جاء موعد لقاء الفتية الثلاثة مع حلقة جديدة من قصة المناضل الطريد جمال الدين الأفغاني، وفي طريقهم إلى متنزه الكاغدخانة تذكر ما قاله لهم الأديب إبراهيم المويلحي عند مغادرتهم مقهى الخواجه جورجى عما كان من أمر السيد جمال الدين مع أحمد بك النقادى قتلصل إيران بالسويس. فقد عرض النقادى على السيد نقوداً قبل أن يصعد إلى السفينة التي نقلته إلى الهند فرفض السيد أن يقبلها وقال: "إن الأسد لا يعدم فريسة أينما حل". وراح الفتية الثلاثة يتسائلون عن فريسة الأسد هذه المرة، ترى ماذا أفترس الأسد الثائر في الهند وإيران؟!

وأخيراً، جاءهم ميرزا لطف الله وبصحبتة عبد القادر المغربي وبدأ ميرزا يقص عليهم أخبار السيد جمال الدين فقال:

"وصل السيد إلى حيدر أباد الدكن بالهند، ورغم تضيق الانجليز عليه، ومراقبتهم لزواره، كان بيته كعبة يجح إليها الوطنيون من الهنود، وكان السيد يقول لزواره: (يجب علينا أن نشارك الأمم الأوروبية في معارفهم، وأن ننافسهم في كل خطوة يخطونها لكسب علم أو إختراع عمل، فلن نستطيع النجاة من الفقر والجهل إلا باكتساب علوم أوروبا ومدنيتها). وعارض دعوة (الطبيعيين) من المثقفين الهنود الذين طالبوا بالإنصراف عن الحضارة الإسلامية وإعتناق الحضارة الأوروبية".

الخضر التونسي: "ولكن.. أى فرق بين ما رآه السيد وما كان يراه هؤلاء؟ ألم يكن يدعو إلى الأخذ بالعلوم الحديثة والمدنية الأوروبية؟"

ميرزا:

"الفرق كبير يا بنى ... فالسيد يريد تجديد شباب الأمة الإسلامية بالتمسك بالإسلام مع أخذ الجوانب النافعة في المدنية الأوروبية، أما (الطبيعيون) الهنود، فكانوا يروجون لأفكار تخدم مصالح الانجليز، فينادون بالتخلص من الإسلام لأنه- في رأيهم - يقيد حركة الشعوب نحو التقدم ... ولذلك حاربهم الأفغاني بلا رحمة، وكتب رسالة مشهورة هاجم فيها أفكارهم وأقام البرهان على ضلالها، كتبها بالفارسية، وترجمها الشيخ محمد عبده إلى العربية، كما تُرجمت إلى عدة لغات أخرى. ونجح السيد جمال الدين في القضاء على دعوة الطبيعيين، فإبفض المسلمون الهنود من حولهم".

خالد الشامي: "جزاه الله عن الإسلام خير الجزاء. . . ولكن، لا أظن أن الإنجليز يقبلون ببقائه في الهند بعد أن نبه الناس إلى فساد أفكار عملائهم".

ميرزا لطف الله:

"طبعاً، طلبوا منه مغادرة الهند إلى أي مكان بشرط ألا يذهب إلى أي بلد إسلامي، فإختار السفر إلى لندن عاصمة بلاد الانجليز، ولما لم تطب له الإقامة هناك إنتقل إلى باريس، حيث لحق به تلميذه الأول الشيخ محمد عبده الذي كان يعيش في منفاه ببيروت بعد فشل الثورة المصرية. وهناك، في باريس أسسا (جمعية العروة الوثقى) التي وعدكم عبد القادر المغربي بالحديث عنها".

عبد الكريم العراقي: "وهل تركه الإنجليز يذهب إلى باريس وهم يعلمون مقدار عداوته لهم؟"

ميرزا: "أثر الانجليز استخدام اللين معه، فسمحوا له بالإنتقال إلى باريس ظناً منهم أنه ما دام بعيداً عن ديار الإسلام فإن خطره يصبح محدوداً، كما حاولوا رشوته ليكسبوه إلى صفهم".

الخضر: "حاولوا رشوته بماذا ؟ بالمال؟! وماذا يفيد المال مع مثل هذا الثائر العظيم؟"

ميرزا:

"لا يا بنى فهم يعرفون جيداً أن السيد جمال الدين لا يهتم بالمال ولكنهم حاولوا إغراءه بالجاه، فعرضوا عليه أن يكون سلطاناً على السودان عندما كانت الثورة المهدية توشك على الإنتهاء في تلك البلاد. ولازلت أذكر ما قاله السيد لرئيس وزراء إنجلترا عندما عرض عليه ذلك: (هل أنتم مالكون للسودان؟ فيمن أين لكم أن تبعثوا إليه بسلطان؟! إن مصر للمصريين، والسودان جزء متمم لمصر)".

عبد القادر المغربي:

"ولم يكتف السيد بذلك، بل أرسل محمد عبده الى السودان ليحرض حكومة المهدي على غزو مصر من الجنوب، وتخليصها من الإحتلال الإنجليزي. ولكن ما كاد محمد عبده يبدأ رحلته حتى وردت أنباء تفيد ضعف مركز المهديين في السودان، فعدل عن هذا المشروع".

عبد الكريم: "يا لها من صفقة مؤلمة وجهها السيد جمال الدين إلى الإنجليز في عقر دارهم ... ولكن، كيف إتصل بإيران لقد قلت لنا انه أن له مع إيران قصة كفاح عظيمة".

ميرزا:

"أجل يا بنى ... فبعد أن منع الإنجليز مجلة العروة الوثقى من دخول البلاد الإسلامية، ضاق السيد ذرعاً بالإقامة في أوروبا، وفكر في التوجه إلى مكة المكرمة، حيث يتيح له موسم الحج الإلتقاء بأكبر عدد ممكن من أبناء الأمة الإسلامية، فيروج لدعوته بينهم. ولكن ناصر الدين شاه إيران دعاه إلى بلاده، فلبى الدعوة حيث إستقبله الشاه بالحفاوة والتكريم، وعرض عليه منصب وزير الحربية، فقبله.

الخضر: "أخيراً وجد السيد جمال الدين الفرصة لتطبيق أفكاره في هذا البلد الإسلامي، فلا شك في أن الشاه لم يكن يعلم بمبادئه ووجوده بالوزارة يساعده على إقناع الحكومة بتطبيقها".

ميرزا:

"ربما إعتقد السيد ذلك، ولكن رجلاً مثله لا يرتاح الملوك المستبدون لصحته، والشاه ناصر الدين كان واحد منهم، فقد نقل إليه جواسيسه ما كان من إتصال جمال الدين بالناس وحبهم له، وترويجه الدعوة إلى الحكم الدستوري الذي يحد من سلطة الشاه، فأثارت تلك الأخبار مخاوف الشاه. . وإشتم جمال الدين رائحة الغدر، فإستأذن في السفر إلى روسيا وظل مقيماً هناك أربع سنوات".

عبد الكريم: "وإرتاح الشاه من المتاعب التي سببها له وجود السيد جمال الدين في إيران".

ميرزا :

"لا يا بني ... كان بقاء السيد خارج إيران أشد خطراً، لأنه أخذ يفضح مظالم الشاه علناً في الصحف، ويدعو إلى إسقاط حكمه. لذلك ألح الشاه عليه في العودة، وسافر إلى روسيا ليجد جمال الدين قد تركها إلى ألمانيا، فلقح به هناك، وتوسط الاصدقاء بينهما، وقبل السيد العودة بعد أن وعده ناصر الدين بأن يغير من أسلوب حكمه الإستبدادي. وما كاد يصل إلى إيران بصحبة الشاه حتى إلتف الناس حوله مطالبين بالإصلاح، ولكن السيد رأى أن الإصلاح لا يجدي مع الإستبداد وأن الدستور الذي يحدد حقوق الشعب وواجبات الحاكم هو خير أداة للإصلاح".

خالد: "وهل يقبل حاكم مستبد كالشاه ناصر الدين أن يتنازل عن سلطانه المطلق طواعية؟"

ميرزا:

"يكفى أن تعلم يا بني أن الشاه تظاهر بالموافقة، ثم إستدعى جمال الدين في محاولة لإقناعه بالتخلي عن الدعوة للدستور، وقال له: (كيف تريد أن تسوى بين ملوك الفرس والفلاحين من أفراد شعبه؟) فرد عليه السيد في الحال بقوله: (إعلم أن تاجك وعظمة سلطانتك ستكون بالحكم الدستوري أعظم وأثبت مما هي عليه الآن. والفلاح والصانع في المملكة أنفع منك ومن أمراك ... فالأمة تستطيع أن تعيش بلا ملك، ولكن هل سمعت يا جلالة الشاه عن ملك عاش دون أمة؟)".

الخضر التونسي: "يا لها من جرأة في الحق لا تتوفر إلا لمثل هذا الأسد الجسور!!! لعل الشاه، نقم عليه!".

ميرزا :

"أحس السيد جمال الدين بالشر يلوح في عيني ناصر الدين شاه، فتوجه إلى مسجد عبد العظيم الذي يبعد قليلاً عن طهران، وأقام هناك محتماً بذلك المسجد الذي يعد مزاراً مقدساً عند الشيعة من دخله كان آمناً. ولكن السيد لم يلق سلاح الكلمة، فكان يحرض زواره على الثورة ضد الشاه، فما كان من الشاه إلا أن أرسل جماعة من عسكره إقتحمت المسجد وحملوا جمال الدين الذي كان مريضاً عندئذ، وألقوا به في سجن قزوين. وهناك تعرف السيد على سجين آخر من معارضي الشاه هو محمد رضا أغاخان، وعاهده هذا السجين على تخليص البلاد من الشاه".

عبد الكريم العراقي: "هل طال الحبس بالسيد جمال الدين في سجن قزوين؟"

ميرزا:

"ما كان الشاه ليستطيع إبقاءه في السجن وهو يعلم أنه قد كسب الكثير من الأنصار إلى صفه، كما كان لا يستطيع أن يقتله حتى لا يثير الشعب عليه، فنقله العسكر حتى الحدود العثمانية (حدود العراق) في مطلع عام 1891، فنزل في خانقين ومنها إلى البصرة".

عبد الكريم: "أخيراً تخلص الشاه منه وذاق طعم النوم بعد أن كان نشاط جمال الدين يؤرقه".

ميرزا:

"إن السيد جمال الدين ليس خصماً سهلاً للاستبداد، فمن البصرة نظم المقاومة ضد حكم الشاه، ونجح في تنظيم حركة مقاطعة لإنتاج شركة التبغ (الدخان) الإنجليزية التي كانت تحتكر إنتاج هذه السلعة في إيران، حتى إضطر الشاه إلى إلغاء إمتياز الشركة بعد أن إمتدت المقاطعة إلى قصره، فذات يوم أمر بإحضار النرجيلة ليدخن فقال له الخدم أن التبغ أصبح محرماً بفتوى شرعية من علماء الدين".

عبد الكريم: "وهل طالقت إقامة السيد بالبصرة؟"

ميرزا: "عندما وصل السيد إلى البصرة كان لا يزال مريضاً، فما أن شفى من مرضه حتى طلب من السلطات العثمانية السماح له بالسفر إلى مكة، فلم تأذن له، فطلب السماح له بالسفر إلى لندن، وأجيب إلى طلبه".

خالد: "إلى بلاد الإنجليز مرة أخرى. لا أظن أن الإنجليز يسمحون له بمزاولة نشاط سياسي في حاضرتهم، وقد أثبتت عداوته الشديدة لهم".

ميرزا:

"يكفى أن تعلم يا بنى أن السيد جمال الدين ساهم مع شركة إنجليزية في إصدار جريدة عرفت بأسم (ضياء الخافقين) نشر فيها مجموعة من المقالات الساخرة إنتقد فيها الشاه بعنوان (تحذير الأمم من كلب العجم). وعندما توقفت هذه الجريدة عن الصدور لم يتوقف السيد عن مهاجمة الشاه في خطبه التي كان يلقيها في منتديات لندن، حتى ضاقت به حكومة إيران فأرسلت إليه تدعوه إلى التوقف عن ذلك مقابل مبلغ كبير من المال، فلم يزد العرض إلا عنفاً في الهجوم على الشاه، وأقسم أن يقاومه حتى آخر نفس يتردد في صدره، وألا يتركه إلا جثة هامدة أو يُنزله عن عرشه".

الخضر: "وماذا فعل الشاه بعد أن فضحه جمال الدين أمام العالم كله؟"

ميرزا:

"لجأ الشاه ناصر الدين إلى عبد الحميد الثاني السلطان العثماني يرجوه أن يقنع السيد بالكف عن مهاجمته. وحاول سفير الدولة العثمانية في لندن أن يقنع جمال الدين فأبى. وأخيراً لجأ السلطان عبد الحميد إلى إتباع الحيلة، فوجه الدعوة إلى السيد للإقامة بالأستانة مع الوعد بالسماح له بالسفر وقتما يشاء، فوافق. وما كاد جمال الدين يصل إلى الأستانة حتى طلب منه السلطان أن يترك الشاه وشأنه، فرفض أولاً، ثم إستجاب لإلحاح السلطان ووعد بترك أمر الشاه قاتلاً للسلطان: (عفوت عنه من أجل خاطركم)".

خالد: "وهل إنتهت معارضة السيد جمال الدين لإستبداد الشاه ناصر الدين عند هذا الحد؟ لقد سمعنا أن الشاه أغتيل في العام الماضي، فهل كان للسيد يد في ذلك؟"

ميرزا:

"حقاً أغتيل الشاه ناصر الدين على يد محمد رضا أغاخان رفيق السيد الأفغاني بسجن قزوین، وكان ذلك في الحادى عشر من مارس (آذار) من العام الماضى 1896، وقال أغاخان وهو يصبو خنجره إلى صدر الشاه: (خذا من يد جمال الدين) ولكن لا أظن أن السيد رحمه الله حرض القاتل على ذلك، فسلحه دائماً القلم والكلمة، ورغم عنفه في إستخدام هذا السلاح، إلا أنه لا يقبل بسفك الدماء".

أنهى ميرزا لطف الله حديثه، وشكره الفتية الثلاثة على ما قدمه لهم من سيرة جمال الدين في الهند وإيران وقيل أن يغادروا متنزه الكاغد خانه وعدهم عبد القادر المغربي بلقاء في الأسبوع التالى بمقهى الخواجه جورجى ليحذثهم عن العروة الوثقى وذكرياته مع جمال الدين في الأستانة.

6 مع الشيخ عبد الرشيد

قضى الفتية الثلاثة الأسبوع في البحث عن آثار جمال الدين من مقالات نشرت في مختلف الصحف، وأعدوا العديد من الأسئلة ليوجهونها إلى عبد القادر المغربي عند لقائهم به، وهم الآن يعرفون سر انتقال السيد جمال الدين بين البلاد الإسلامية وأوربا، فقد أراد الرجل أن يتخذ من مصر أو إيران قاعدة لإنقاذ الشرق، ولكنه كان دائماً طريد الإستبداد وحليفه الإستعمار، فكلاهما لا يرتاح إلى نشاطه، ويرى فيه خطراً على وجوده. وما أن حل يوم الجمعة حتى توجه الشبان الثلاثة إلى مقهى الخواجه جورجى، وما هى إلا لحظات حتى شاهدوا عبد القادر المغربي قادماً من بعيد، وبصحبه شيخ معمم مستدير الوجه أشقر البشرة طويل القامة، يرتدى جبة أنيقة ذا لحية طويلة تجمع بين لون الذهب والفضة.

فقال عبد الكريم العراقي: "من هذا الشيخ الجليل الذى يعامله عبد القادر باحترام شديد؟ لعله أعد لنا مفاجأة، فقد وعدنا بالحضور وحده هذه المرة".

خالد الشامى: "هاهما يقتربان منا فلننتظر قليلاً حتى نعرف ما وراء هذا الشيخ الجليل".

وما كاد خالد يتم كلامه حتى كان عبد القادر وصاحبه أمامهم فتبادل الجميع التحية وقال عبد القادر المغربى: "هذا هو الشيخ عبد الرشيد إبراهيم الثورى الذى قاوم طغيان قيصر روسيا، وهو من أقرب الناس إلى قلب الإستاذ الراحل".

الخضر التونسى: "أنه لشرف عظيم لنا أن يأتى الشيخ عبد الرشيد إلينا، وكان يجب علينا أن نسعى إليه".

عبد القادر: "لقد ألتقيت بالشيخ مصادفة بمسجد السليمانية وعندما سألتنى عن وجهتى بعد الصلاة، وعلم بما كان من إهتمامكم بسيرة أستاذنا الراحل، أصر على الحضور معى لرؤيتكم".

الشيخ عبد الرشيد:

"يا أبنائي ... كيف لا أسعى إلى فتية أحبوا السيد جمال الدين من سيرته ... إنكم تمثلون ضمير الأمة التي وهبها السيد حياته . لقد زرته عشية وفاته فطلب مني أن أقرب منه، فدنوت من فراشه، فقال: (إن رسول الله عندما حضرته الوفاة قال: أمتي ... أمتي، وأنا أقول ملتي ملتي ...)، فأمة الإسلام بخير إلى يوم الدين مادام فيها فتية من أمثالكم".

الخضر التونسي: "يبدو من حديث الشيخ عبد الرشيد أنه عرف السيد منذ زمن بعيد، ولكنك لم تخبرنا ببداية هذه العلاقة فما صلتك بالسيد ومتى عرفته؟

الشيخ عبد الرشيد:

"عندما ترك الفقيد إيران في عام 1886 توجه إلى بطرسبورج عاصمة روسيا، وكانت سمعته قد سبقته، وكان السيد يظن أن روسيا يمكن أن تساعد على تحطيم مشروعات الإستعمار الانجليزي في الشرق لو وقفت إلى جانبه، كما كان يريد أن يخفف من وقائع المظالم التي نتعرض لها نحن المسلمون في روسيا، وبفضله سمحت لنا الحكومة بطبع المصحف، وصادر الصحف، ونشر بعض الكتب الدينية، ولما كنت المتحدث بلسان المسلمين الروس، فقد تعاونت مع السيد".

عبد الكريم العراقي: "هذا أمر طبيعي، فالسيد لا يرضى بذل المسلمين أينما كانوا، ولكن ماذا كان موقف القيصر منه؟

الشيخ عبد الرشيد:

"دعاه القيصر يوماً للقاءه، وسأله عن أحوال إيران، فتحدث السيد بصراحة عن إستبداد الشاه ناصر الدين بأمر رعيته وإسرافه في إنفاق أموال البلاد بدون حسيب أو رقيب ورفضه إصدار الدستور. فقال القيصر: (إنني أرى الحق مع الشاه، فكيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحوا مملكته؟!)

خالد الشامي: "وماذا كان رد السيد جمال الدين عليه لا أظن انه كان رقيقاً به فهناك حديث مشابه دار بينه وبين الشاه حدثتاً عنه السيد ميرزا، كان رد جمال الدين فيه جريئاً عنيماً".

الشيخ عبد الرشيد: "قال السيد للقيصر: (أعتقد انه خير لعرش الملك أن يكون ملايين الرعية أصدقاء له بدلا من أن يكونوا أعداء)".

عبد الكريم: "وماذا فعل به القيصر؟ لا بد أن يكون قد أمر بطرده من بلاده".

الشيخ عبد الرشيد: "طلب القيصر ذلك بالفعل من حاشيته، ولكن السيد وفر عليه الأمر، فسافر إلى مدينة ميونخ بألمانيا، وهناك إنقضى بالشاه ناصر الدين وقبل السيد العودة إلى إيران بعد توسط الكثير من أصدقاءه".

الخضر: "وهل كف السيد جمال الدين يده عن أمور المسلمين في روسيا أم ظل على صلة بهم وأطلاع على أحوالهم؟"

الشيخ عبد الرشيد:

"كنت أرسل السيد وأطلعه على تطورات حركتنا، وعلى صلاتنا بالأحرار من الروس، حتى أحس القيصر بخطورة نشاطنا، وكادت أقع في يده، غير أن أعوانى ساعدوني على الفرار إلى اليابان، فمكثت هناك فترة من الزمان دعوت فيها بعض اليابانيين إلى الإسلام، ثم سافرت إلى الأستانة وكان السيد قد إستقر بها، فلزمت صحبته حتى عشية لقاء ربه".

عبد الكريم: "لقد أطلعنا أيها الشيخ الجليل على صفحة من صفحات نضال السيد جمال الدين ... وأكاد أحس أن الرجل لم يترك باباً إلا وطرقه من أجل تخليص أمته من الظلم والطغيان والإستبداد".

الشيخ عبد الرشيد: "كان السيد يعتبر كل بلد إسلامي وطناً له، وكل شعب إسلامي أهله، فلم يشعر بالغربة يوماً، وكان يردد دائماً قوله: (إن المسلمين جميعاً غرباء في بلادهم)".

الخضر: "لعله كان يقصد أن المستعمرين ينهبون خيرات بلاد المسلمين ويحرمون أهلها منها".

عبد القادر المغربي: "طبعاً . . . ولكن أيها الأخوة، لقد أخذنا الكثير من وقت الشيخ عبد الرشيد، وأظنه يريد العودة إلى داره، وإنني أشكره باسمكم جميعاً، أرجو أن تأتوا معي إلى بيتي لنكمل حديثنا هناك".

قَبِلَ الفتية دعوة عبد القادر وشكروا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم عند إنصرافه، وساروا بصحبة عبد القادر إلى حيث يقيم.

7 فى بيت المغربى

لم يكن بيت عبد القادر المغربى يقع بعيداً عن سوق مصر حيث مهى الخواجة جورجى، وفى الطريق، إلى البيت إشتري عبد القادر بعض الأطعمة من السوق ليتناول الجميع الغذاء فى بيته. وكان حديث الشباب طوال الطريق إلى البيت يدور حول ما سمعوه من الشيخ عبد الرشيد.

وصل الرفاق إلى البيت الذى كان متواضع الأثاث شأنه شأن بيوت طلاب العلم، وما أن دخلوه حتى أعد لهم عبد القادر مائدة الطعام، وجلسوا يأكلون ويتجادبون أطراف الحديث.

عبد القادر: "لقد جننا إلى هنا حتى نكون بمأمن من رجال الضبطية، لأن الحديث عن حياة السيد جمال الدين بالأستانة يعرض أصحابه للخطر".

الخضر التونسى: "لا نستبعد ذلك بعدما سمعناه من كفاح السيد ضد الطغيان والإستبداد، لأن السلطان عبد الحميد ليس خيراً من القيصر أو الشاه، فكلهم ظالم لرعيته".

عبد الكريم العراقى: "كأنك يا أخ عبد القادر نسيت وعدك لنا بالحديث عن تلك المجلة الخطيرة التى أصدرها السيد جمال الدين بباريس وسماها بالعروة الوثقى".

عبد القادر: "لا يا أخى لم أنس ... أعلم أن السيد أسس جمعية إسلامية سرية من أفاضل مسلمى الهند ومصر سميت بجمعية العروة الوثقى، كانت تهدف إلى إعادة عز الإسلام ومجده والعمل على تطهير العقائد الدينية مما شابها، وذلك عن طريق تضامن المسلمين وإتحادهم".

عبد الكريم: "أهى جمعية إسلامية أم مجلة سياسية؟"

عبد القادر:

"كلامهما معا . . . فقد أصدرت الجمعية مجلة بنفس الإسم حررها الشيخ محمد عبده بإشراف السيد جمال الدين، وعاونه فى تحريرها ميرزا محمد باقر الفارسى، الذى كان قد إرتد عن الإسلام ثم عاد إليه وأفنى حياته فى سبيله، وكان يعقوب صنوع -اليهودى- المصرى الذى حدثكم المويلحى عنه، يتردد على مقر المجلة بباريس عندما كان يعيش فى المنفى. وقد صدر العدد الأول من المجلة فى الحادى عشر من مارس (آذار) عام 1884، وتوقفت عن الصدور بعد العدد الثامن عشر بسبب مقاومة الإنجليز لها، فكانت تصدر فى مصر والهند وغيرها من ديار الإسلام لإحتوائها على مقالات نارية تفضح السياسة الإستعمارية".

الخضر:

"حصلت على بعض أعداد المجلة من صديق تونسى، وبها مقال كتبه السيد جمال الدين، حدد فيه أسباب تخلف المسلمين، فأرجع ذلك إلى تفرق كلمتهم ووقوع الخلاف بين علمائهم، ورأى أن تخلص المسلمين من الجهل ونشر العلوم وتنوير الأفهام وتصفية الخلافات بين أبناء الدين الواحد، كفىل بتقوية الأمة الإسلامية فى مواجهة التدخل الأجنبى".

عبد القادر:

"وقد لقيت تلك الآراء قبولاً عند قراء المجلة المنتشرون فى أرجاء العالم الإسلامى، وكادت تحقق إتفاق الكلمة على أسس الإصلاح، لولا قيام الحكومات الإسلامية الخاضعة للإستعمار بفرض عقوبة رادعة على من يُضبط متلبساً بقراءة العروة الوثقى أو تُضبط المجلة فى بيته".

خالد الشامى:

"إن، حاول السيد أن يوصل مبادئ الإصلاح إلى جميع المسلمين ويحدد لهم معالم طريق التحرر على صفحات الصحف التى كان يصدرها بأوروبا سواء فى باريس أو لندن، ولكن الإستعمار والإستبداد كانا له بالمرصاد، فترك أوروبا وجاء إلى الأستانة، أليس كذلك؟"

عبد القادر:

"ربما ... ولكنى أعتقد أن السيد إسْتُدْرَج إلى الأستانة، فقد تلقى رحمه الله، خطاباً رقيقاً من الشيخ أبى الهدى (شيخ الإسلام) المعروف بدهائه ومكره، يدعو بمعسول الكلام للحضور إلى الأستانة بدعوة من السلطان عبد

الحميد على أن يغادرها وقتما يشاء. ولما كان السيد يمتاز بحُسن النية رغم ذكائه المفرط ولا يعلم حقيقة أبي الهدى، جازت عليه الحيلة وقيل الدعوة".

عبد الكريم: "معنى ذلك أن هذه الرسالة كانت الشبكة التي إصطادت هذا الأسد الجسور".

عبد القادر:

"ودفعَ السلطان إلى الجِد في طلبه، ما كان ينشره من مقالات ويدلى به من أحاديث في أوروبا حول مظالم الحكم في إيران وغيرها من بلاد الإسلام، إذ كان لهذا النشاط أثره الفعال في إيران وكذلك في الدولة العثمانية، ومما زاد من مخاوف السلطان أن السيد كان على صلة وثيقة برجال حزب تركيا الفتاة الذي كان يسعى لإصلاح الدولة العثمانية وإنهاء إستبداد السلطان عبد الحميد".

عبد الكريم: "فَهَمْتُ الآن لماذا دُفِن جمال الدين مخفوراً بالعكس، لقد كان السلطان يخشاه حياً وميتاً".

عبد القادر: "أظهر السلطان الود للسيد جمال الدين، فأنزله في قصر بديع، هو قصر المسافر خانة (الضيافة)، وخصص له عربة فخمة، وخدم وحشم، وكلهم كانوا من جواسيس السلطان الذين كان عليهم رصد تحركات السيد وإتصالاته".

الخضر: "سمعت من صديقي التونسي أن السلطان حاول أن يكسب ود السيد فعرض عليه الزواج من إحدى بنات الأسر التركية الكريمة".

عبد القادر: "أجل ... وقد رفض السيد العرض معتذراً بأنه لا يجدُ من الوقت ما يفيض عن الحاجة لرعاية الزوجة، وأنه لو كان بإستطاعته أن يكون أسرةً لما ظل هكذا دون زواج".

خالد الشامي: "لا أظن أن رجلاً مثل جمال الدين الأفغاني يقنع بحياة القصور ويكف عن الجهاد في سبيل أمته".

عبد القادر:

"ظن السيد أن الفرصة قد واثته لإتخاذ دولة الخلافة قاعدة لإصلاح العالم الإسلامي وتحقيق وحدته، فأخذ يضع الخطط لإقامة جامعة للشعوب الإسلامية تضم الدولة العثمانية بولاياتها العربية إلى جانب إيران وأفغانستان، وتتجه إليها آمال المسلمين في الهند وروسيا وسائر أنحاء العالم. كما وضع المناهج لإصلاح المدارس لتخريج جيل جديد يقدر خطورة المرحلة التي تمر بها البلاد، وشجعه على ذلك تقرب السلطان له، فكان يسمح له بالدخول عليه وقتما يشاء".

عبد الكريم: "هل يعنى ذلك أن السيد جمال الدين أصبح موظفاً كبيراً عند السلطان؟"

عبد القادر:

"لا يا أخی. . . لم يقبل السيد الوظائف الكبرى التي عرضها السلطان عليه مثل منصب شيخ الإسلام، وعندما أنعم عليه السلطان برتبة (قاضى عسكر) وهي أرفع مرتبة يصلها علماء الإسلام في الدولة العثمانية، وأرسل إليه شارات الرتبة مع أحد رجاله، وهي عبارة عن جبه زاهية الألوان وزينة مذهبة للصدر والرأس، رفضها السيد، وقال لرجل السلطان: (قُل لمولاي السلطان أن جمال الدين يرى أن رتبة العلم أعلى الرتب)".

عبد الكريم: "ذلك يعنى أن السلطان عبد الحميد الثانى حاول إستئناس الأسد. . . ترى ماذا كان نصيبه من النجاح؟".

عبد القادر:

"أحس السيد أن السلطان غير جاد في إصلاح الدولة، وأنه يتخذ من فكرة الجامعة الإسلامية شعاراً لتدعيم سلطته، دون أن يسعى لتحويلها إلى أداة للنهوض بالأمة الإسلامية، وتحدث السيد عن ذلك علناً، فنقل الجواسيس كلامه إلى السلطان، الذى أصبح يخشاه، ويشدد الرقابة عليه".

الخضر: "لابد أن جمال الدين أحس بذلك، وحاول مغادرة الأستانة".

عبد القادر:

"أجل ... حاول ذلك مرتان: الأولى، عندما أرسل إليه عبد الله وليم رئيس الجمعية الإسلامية بليفربول في إنجلترا بدعوه للمشاركة في الدعوة الإسلامية بأمريكا، والثانية، عندما أيقن من فشل الجراحة التي أجريت له في فمه قبل وفاته فطلب من مستشار السفارة الإنجليزية — وكان صديقاً له — أن يسهل له أمر السفر إلى إنجلترا للعلاج".

خالد: "وماذا كان موقف السلطان؟"

عبد القادر: "الرفض طبعاً... فهو يعلم أن السيد إذا غادر الأستانة بعد كل ما رآه من إستبداد عبد الحميد وفساد حكمه، لن يكون رفيقاً به، تماماً كما كان مع الشاه ناصر الدين".

الخضر: "سمعت إشاعة يتداولها الناس سرّاً تقول أن السيد جمال الدين قُتل ولم يمّت موتاً طبيعياً، وأن الجراحة الفاشلة التي أجراها له طبيب السلطان الخاص كانت السبب في وفاته... فهل تعتقد يا أخ عبد القادر أن ذلك هو ما حدث بالفعل؟"

عبد القادر:

"ربما... فالسلطان عبد الحميد عنيد داهية، لا تأخذه بخصومة شفقة ولا رحمه، ولعله فعلها ليتخلص من جمال الدين بعدما أفرغته مقتل الشاه ناصر الدين، وصلة القاتل بجمال الدين جعلت السلطان يخشى أن يكون السيد قد دبر له مكيدة لتخليص البلاد والعباد من إستبداده".

الخضر: "الأعمار بيد الله على كل حال... ولكن ألا يجدر بنا أن نتذكر أن الفاصل الزمني بين مصرع الشاه ووفاة السيد متأثراً بالجراحة الفاشلة عام واحد؟!"

بعد الغذاء، تناول ضيوف عبد القادر المغربي القهوة، ثم إنصرفوا إلى حال سبيلهم بعد أن قدموا له الشكر. وظلوا طوال الطريق إلى المنزل صامتين، يفكر كل منهم فيما سمعه من سيره جمال الدين الأفغاني، وقطع الصمت صوت الخضر التونسي وهو يردد قول جمال الدين: "ما مات أحدٌ في حب أمته إلا وأحيتة".

النهاية